بين آدم وحواء :

تحت شجـــرة التين

للدكتور زكي مبارك

جاهد آدم نفسه في حدود ما يطيق ... وماذا يطيق المرء وهو يجاهد النفس في أهواء تسوقها امرأة ؟ سينتهي أمره إلى الهزيمة ، إلا أن تؤيده قوة ربانية تصرف عنه السوء وتردّه إلى الاعتصام بالعقل . والحكمة يعلمها الله ضعف آدم عن مقاومة حواء ، ودعاها إلى التلاقي تحت شجرة التين

وهنا يذكر شيث في كتابه أن حواءَ تلكأت في الاستجابة لذلك الدعاء ، ولزمت مكانها تحت شجرة الطلح ، كأنها تريد أن تحمله على الإلحاح فيكون البادئ بالعصيان

ولو تأمل شيث قليلاً لذكر تعليلاً غير هذا التعليل ، فالرأي عندي أن حواء توهمت أن لآدم رغبةً في شجرة التين ، وأن تمنّعه لم يكن عن صدق ، وإنما كان يريد أن يحمّلها تبعة العصيان

والحوادث تؤيد هذا الافتراض ، فما كاد آدم يخبر حواء بأنه سيسايرها فيما تريد حتى فترت رغبتها في قرب الشجرة المحرَّمة ، وأعلنت اكتفاءها بما أحلّ الله من طيبات الفردوس

فما معنى ذلك ؟ وما مغزاه ؟

معناه أن حواء تحب أن تسلك في جانب يغاير ما يسلك آدم من الجوانب ، فقد أحبت حواء التين حين ثار آدم عليه ، ثم زهدت فيه حين رأته من هواه ، وإلا فكيف جاز أن يدعوها فلا تجيب وهي التي قهرته قهراً على أن يذعن لما تريد من قرب شجرة التين ؟

وابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شماس ، ثم حمد الله على انحسار الغمة وانجلاء الضيق ، وأخذ في الاستغفار من الذنب الذي اقترف . فقد حدّثه الضمير بأنه أذنب بالفعل ، وإن لم يذق الثمر الممنوع ، لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء في نظر الأخلاق ، وكان آدم يعرف أنه يعامل الله ، والله يحاسب على النيات بأقسى مما يحاسب على الأقوال والأفعال ، لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب السيد

ثم نظر آدم فلم ير حواء ، فأين ذهبت ؟

فتش عنها في غياضٍ كثيرة ، وسأل عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب ، فأين ذهبت ؟ وكيف ضاعت ؟ وما السبيل إلى مكانها في الجنة الفيحاء ؟

أتكون غضبتْ من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد ؟

لقد خطر لآدم هـذا الخاطر ، فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا في أوقات الخلاف . وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا في لحظات الثورة على الأوامر الربانية ؟

أمرُ هذه المخلوقة أعجب من العجب ، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال ، وهي تفقد كل قيمتها حين تتناول شؤون الحب في طاعة مجردة من الإحساس ، كالطاعة التي تصدر عن فتاة لم تبلغ سنّ الكيد ، وكيدُ المرأة إثمٌ جميل !

فكّر آدم طويلاً في غيبة حواء ، وانزعج حين خطر له أن تكون حُرِمت الثورة على ما ترى وما تسمع ، وأنها لذلك سكنت إلى العزلة في جُنَينة مهجورة يسقيها نهرٌ مجهول من رواضع الكوثر وهي رواضع تُعدّ بالألوف[1]

وعاد آدم إلى نفسه ليعرف حاله في غيبة حواء ، فصحّ عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء

يجب أن يكون في الوجود حرامٌ وحلال ، لتشعر بالذاتية في قرب هذا واجتناب ذاك ، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث ، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق . وقد يكون العصيان عن نية أفضل من الطاعة بلا إحساس ، لأن المهمّ أن نُدان حين نعصي ، ونُثاب حين نطيع ، ولا يتمّ ذلك بغير النية الواضحة فيما نباشر من مختلف الأعمال .

أتكون حواء ترهّبت فلاذت بأحد الكهوف ؟

ذلك ما خاف آدم أن يكون ، فالترهب نذير الموت ، وهو يكره لحواء أن تموت .

وكيف يعيش آدم إذا غفا كيد حواء ؟

---

(١) الرواضع هي النهيرات التي تأخذ زادها من النهر الأعظم ، أما الروافد فهي النهيرات التي تمده بالسيول .

لقد أبدعته إبداعاً وأنشأته إنشاء ، حين تولّت إضرام الجمر المكنون فى قلبه الوسنان ، وآدم رجل ، والرجل يحفظ الجميل .

ومرّ حينٌ وأحيان وأحايين وحواء لا تعود .

وشعر آدم بانعدام أسباب الثورة والهدوء فأيقن بقرب الفناء

وما حياةُ الرجل إذا خلت من الأحلام والحقائق والأباطيل ؟

ما حياته إذا حُرِم التنقل من ضلالٍ إلى هدًى ، ومن هدًى إلى ضلال ؟

قيمة الرجل بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء ، وقد أمسى صدر « آدم » وهو جلمود أملس لا ينبت الأزهار ولا الأشواك ولا يثبت فوقه تراب ولا ماء

والتفت « آدم » فرأى من الخير أن ينقطع للاستغفار ليتوب الله عليه ، وهل أذنب حتى يتوب ؟

إن كان كل حظه من المعصية أنه رضى مسايرة « حواء » ، وقد ذهبت « حواء » ولم يبق موجب للقنوت والابتهال

الموت أفضل من حياة تخلو من مقارعة هوى النفس فى كل يوم .

والرجل الذى يواجه المعانى بقلبٍ أغلف شبيهٌ بالرجل الذى يطالع سفر الوجود وهو معصوب العينين . وهل كان الموت فناء إلا لأنه يصدنا عن صنع الخير واجتراح الآثام ؟

وما طعمُ الاستغفار على لسان من لم يذنب ؟ وما لونُ الطاعة فى عين من لم يقاوم الأهواء ؟

لقد مات « آدم » وهو حى ، فلم يعُد يدرك ما فى الفردوس من سِحر وفُتون

كان « آدم » يجد لذة فى ضرب « حواء » ، فأين هى الآن ليتمتع بلطم خدها الأسيل ؟ !

وكانت « حواء » تجر « آدم » إلى مآزق تُشعره بقوة الحيوانية ، فأين هو اليوم من تلك المآزق ؟ وأين سبيله إلى الفتك والجنون ؟

لقد خلت حياته من جميع المعانى بعد غيبة « حواء » ، وما كان يعرف أنها تملك من الروحانية الأثيمة ذلك الحظ العظيم

وانطلق « آدم » يراود معاهد الحب ، علّه يجد « حواء » مختبئة فى بعض ألفاف البواسق ، على نحو ما كان يقع فى الأوقات السوالف ، ولكنه لم يظفر بغير اليأس

أين « حواء » ؟ أين « حواء » ؟

أين الصبية الجميلة التى أوحت إليه فكرة الثورة على الشرائع ؟

أين الخلقة الحلوة التى زينت له طعم العصيان ؟

كان آدم يشتهى جميع ما فى الجنة من أطايب قبل أن تفارقه حواء ، ثم أمسى وهو موقوذ الشهية بسبب الفراق ، وهل تطيب الحياة لمن يعيش بلا أنيس موسوم بالصباحة والجمال ؟

ذلك نعيم ذهب ، وأمل ضاع ، فليقتل آدم نفسه إن شاء

هى امرأة مخبولة ، ولكنها مشتهاة ، والشهوة رزق من الأرزاق ، وإن قيل فى تجريحها ما قيل

كان آدم يهز الشجرات المثمرات ليُطعم حواء ، وهو اليوم يرضى بما يسقط من الثمر المعطوب ، إن بَقِى له شىء من نعمة الجوع ، والجوع نعمة لا يحسها غير الأصحّاء

كان لآدم فى الجنة تاريخ بسبب اللجاجة التى كانت تثور عن حواء من حين إلى حين ، فما حياته وقد أمسى مغسول القلب والروح والوجدان ؟

أيعبد الله بالاستغفار ؟ ومم يستغفر وهو مقتول الأهواء ؟

أيسبّح لله ؟ وكيف ؟ إن التسبيحَ تنزيه وهو معنًى لا يُدرك بغير القياس ؟

لو عادت حواء لاستطاب آدم شجرة التين ، ولكن متى تعود ؟

لقد اكتفت الشقية بأن تطمئن إلى أنها مصدر ضلاله وهداه ؛ وكذلك رأت أن تتركه فى حيرة دامية عدداً من الأعوام العجاف ؛ وبغيُ المرأة لا يحتاج إلى برهان

استيأس آدم فرضى بالانزواء فى أحد الأدغال ، وعند ذلك شعرت حواء بالشوق إلى مصاولته من جديد ، والمرأة يؤذيها أن يهدأ الرجل ، ولو كان فى المحراب

— آدم ! آدم !

— حواء ؟

— نعم ، حواء ، ألا ترانى ؟

— كنت حسبت أنكِ ذهبت إلى غير مآب

— قبل أن نأكل معاً من شجرة التين ؟ هذا مستحيل !

— وهل نعصى الله يا حواء ؟

— سترى أن المعصية طيبة المذاق (؟ !)

وتنبّه آدم فرأى أنه مقبل على خطر جديد ، فدار الحوار بأسلوب جديد

(للحديث شجون)

زكى مبارك